

الميلاد والعطاء، الجزء الثاني

المتروبوليت سابا (اسبر)

يقودنا هذا التأمل البسيط في الميلاد إلى المفهوم المسيحي للعطاء. فالموقف الأوّل، المطلوب من المسيحي، هو أن يفتح على عطية الله، لأنّه عندما يقبل العطية الإلهية، ويقدر أهميتها ودورها في حياته، يصبح أهلاً لممارسة العطاء بدوره. "ونحن عرفنا المحبة حين ضحّى المسيح بنفسه لأجلنا، فعلينا نحن أن نضحّى بنفوسنا لأجل إخوتنا" (١٦/٣ يو).

يحتننا الكتاب المقدّس على العطاء، ويوليه أهمية كبرى. فتقديم العشاء في العهد القديم (تث ٢٦)، إنّما كان تعبيراً عن امتنان الإنسان لله على ما منحه من عطايا، ويستمر هذا المفهوم في العهد الجديد، ليتجاوز العشاء إلى كلّ شيء. يقول الربّ: "من سألك فأعطه" (مت ٥/٤٢)، أي يطلب المسيح من تلاميذه أن يبقوا فاتحين قلوبهم وأيديهم. صمّ الآذان علامة على قساوة القلب، وهذه لا تليق بتلميذ المسيح.

لا يقف العطاء المسيحي عند حدّ معين، فهو مفتوح على الكمال. يعطي الإنسان بقدر استطاعته. لكن هذه الاستطاعة تحددها محبة الإنسان للربّ، وتقديره لما فعله ويفعله من أجله؛ كذلك تحددها درجة تحرّره من حبّ التملّك، وصحوه لأهمية العطاء، إلى درجة فرحه به.

يعطي الكثيرون ابتغاء تنفيذ الوصية الإلهية، بينما يعطي آخرون بدافع استدرار بركات الله ورضاه عليهم. في هذين النوعين من العطاء تكون العطية مقبولة، إنّما غير مكتملة. فالعطاء مرتبط بدرجة المستوى الروحي، الذي وصله المعطي. هناك من وصل إلى حدّ الاقتداء بالمسيح حرفياً وأعطى كلّ شيء، ووصولاً إلى تقديم حياته بكليتها. فحبّ العطاء ينمو في الإنسان طرداً مع نموه في محبة الله.

ثمّة من يُمسكون عن العطاء، لأسباب وأسباب. هؤلاء لم يختبروا فرح العطاء وفعله فيهم. كثيراً ما يعتقد الناس أنّ العطاء يُفرح قلوب الذين

يحصلون عليه. هذا صحيح ولا شك، لكنّه، بالأكثر، يُفرح قلب المُعطي؟ قال الكتاب المقدّس: "من أعطى بسخاء يُعطي، والذي يروي الآخرين يُروي" (أم ١١ : ٢٥). وقد قيل: المُعطي المتهلّل يحبّه الربّ (٢ كور ٩ : ٧). ففرح المتلقّي بالعطيّة ينتقل إلى المُعطي فرحاً مضاعفاً، لأنّ الله يباركه.

لا يقف العطاء عند المادّة. إنّهُ حالة يختبرها المؤمن باستمرار، إلى أن تصير حالة دائمة عنده. لا تحرم نفسك من العطاء، ولا تتذرع بأيّ حجة، لئلا تبقى مغليقاً على ذاتك. ابتسامة صادقة منك قد تلقى فعلاً منعشاً في نفس محزون. نظرة حنان ومشاركة قد تنعش متألماً مفتقداً للحبّ والرعاية. لمسة يد دافئة قد تعيد الروح لمن شعر بالإهمال والوحدة.

ما من أحد معفى من فضيلة العطاء. لنتذكّر فلس الأرملة. العبرة في توقّر روح العطاء قبل نوعيّته وكميّته. تمثّل برّبك المتجسّد من أجلك أنت، ومن أجل خلاصك. بادله عطاءه المذهل بما تقدر عليه، ترى كمّ البركات التي تجنيها لنفسك. يحزرك العطاء من الأنانيّة والانغلاق وحبّ الذات والخوف، وهذه تقتلك وأنت في الحياة. ما أتى المسيح من أجل أن تبقى أسيراً، أتى لكي يحزرك ويهبك الحياة بملئها. ارمِ بنفسك أمامه، وكوّم غبار أنانيتك عند قدّمَي الطفل الإلهي، وافتح يديك لتمتلأ بعطاياه، فتنقلها مسرّةً لإخوتك، ويصير العيد.